يوسف شلحت ؛ علم الاجتماع الديني

قد يكون من الصعب جداً في الوقت الحاضر ان يؤلف العلماء كتاباً في علم الاجتماع العام مستوفياً جميع الشروط العلمية الصحيحة . وقد يكون أصعب من ذلك ايضاً ان يضعوا كتاباً صحيحاً مضبوطاً في علم الاجتماع الديني .

والسبب في ذلك ان حقائق علم الاجتماع لم تصبح بعد نهائية كحقائق العلوم الرياضية والطبيعية . فاذا اراد العالم ان يعرض مسائلها بأسلوب علمي واضح ، ويرتب مبادئها وقوانينها . لقي في ذلك عناء كبيراً لفقدان كثير من الحلقات المتوسطة ، ولعدم استقرار الحقائق الاجتماعية على شكل نهائي ثابت . ان علم الاجتماع حديث النشأة ، وموضوعه كما قال (اوغوست كونت) اكثر موضوعات العلوم تعقداً واشتباكاً . والموضوعات المعقدة تحتاج الى طريقة علمية مضبوطة وقواعد ثابتة دقيقة . فاذا أخلّ العالم بأصل من أصولها ، او اهمل شرطاً من شروطها ، تاه في بيداء الوهم وضل سواء السبيل . وقد يظن انه ادرك ضالته المنشودة وبلغ العلم اليقيني ، وهو في الحقيقة لم يدرك الا البرق الخلب . ان السيارة المفككة المحاور تكفي للسير بسرعة في الطريق المعبدة ، اما الطريق الوعرة فتحتاج الى سيارة محكمة التركيب قوية المحرك . لذلك كانت المباحث الاجتماعية أحوج الموضوعات العلمية الى طريقة مضبوطة واستقصاء تام ، ولذلك ايضاً كان أقل خطأ في الاستقرار والتحليل باعثاً على التعليل الفاسد والتضليل .

وما يصدق على علم الاجتماع العام ينطبق ايضاً على علم الاجتماع الديني ، لا بل هو في هذا العلم اظهر وابين . لأن موضوع علم الاجتماع الديني كما قال (دوركهايم) ، انما هو البحث في العقائد والفرائض والأفعال المتعلقة بالأشياء المقدسة . فيه يميز الحرام من الحلال ، والمقدس من غير المقدس ، والطاهر من النجس . وهي امور منقولة الينا بالتربية والتقليد والتلقين . لا حيلة لنا في الأخذ بها أو في ردها . فقد ننشأ على العقائد الدينية الموروثة كما قال الغزالي بتقليد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوالدين والمعلمين . ثم قد يتحرك باطننا الى طلب اليقين فتنكشف لعقولنا حقيقة الدين انكشافاً لا ريب فيه فنرضى بها ونطمئن اليها . وقد يتسرب الشك الى قلوبنا فنردها ، وتقاوم الرأي العام بخروجنا عليها ، الا انها في جميع هذه الأحوال لا تخلو من صفة الجبر . بل تفرض علينا فرضاً ، وتضغطنا ، وتضطرنا الى اتباعها . وهذا يدل على ان الأمور الدينية ليست من الأمور الخارجية المستقلة عن نفوسنا بل هي خارجية وداخلية معاً . ومتى كانت الأشياء الخارجية ممازجة للارادات والعواطف كان اتباع الطريقة العلمية فيها اصعب وادق .

ومع ذلك فان علماء الاجتماع لم يعجزوا عن السير في طريقهم الذي انتهجوه فقرروا اولاً ان الظواهر الاجتماعية اشياء خارجية غير مسيرة بارادة الانسان ، وانه لا يجوز الاقتصار فى تعليلها على العوامل النفسية الفردية ، وانها خاضعة لقوانين طبيعية ضرورية كغيرها من الظواهر . ثم انهم سلكوا في بحثهم عن هذه القوانين طريقة علمية صحيحة ، مبنية على الاستقراء والتحليل ، والاستقصاء والمقارنة . وساروا في ذلك قدماً حتى بلغوا بعلم الاجتماع ، خلال نصف قرن ، درجة من الضبط ، قلما بلغها علم من العلوم في نشأته الأولى . وهذا يبشر علم الاجتماع بمستقبل عظيم ، قد يكون له في اصلاح الحياة الانسانية اثر عميق ، لأن نطاقه سيكون واسعاً ، تدخل فيه الحياة المنزلية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والحقوقية ، والدولية ، والدينية ، والفنية .

لقد اثارت آراء (دور كهايم) في علم الاجتماع بصورة عامة ، وفي علم الاجتماع الديني بصورة خاصة ، ضجة عظيمة . فانتقده بعضهم لقوله بروح اجتماعية كلية مختلفة عن النفس الفردية ، وزعمه ان لهذه الروح وجوداً حقيقياً شبيهاً بوجود الذوات الروحانية والعقول المفارقة . وانتقدوه ايضاً لزعمه ان العقائد الدينية والفرائض والأخلاق هي أشياء خارجية ليس غير . ولكن علم الاجتماع قد صحح بعد ذلك كثيراً من هذه الآراء ، فأخذ بمبدأ التقيد الطبيعي ، واعتمد على الملاحظة ، والاحصاء ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتاريخ ، والمقارنة . ومهما يكن من أمر فان علم الاجتماع لا ينكر وجود الديانة ، بل يعتبرها اصلاً ضرورياً من أصول الحياة الاجتماعية . وغاية ما يرجوه علماء الاجتماع ان يعللوا نشأة الديانات المختلفة ، ويبينوا مراحل تطورها ، بطريقة علمية وضعية ، من غير ان يتعرضوا للبحث في أصلها السماوي بالنفي او الاثبات . وفي الكتاب الذي جمعه السيد يوسف شلحت دليل واضح على ذلك . وهو فيما نعلم اول محاولة باللغة بالعربية للبحث في نشأة الديانات بطريقة علمية . الا ان هذه المحاولة كغيرها من المحاولات في اللغات الأجنبية ، لم تبلغ بعد درجة العلم اليقيني . ففيها كثير من الآراء والنظريات ، وفيها كثير من التردد والالتواء ، وهي ستثير ، كما قال (دور كهايم) نفسه عن آرائه ، دهشة القراء . وهذا لا ينقص من قيمتها ، بل انه سيدفع الباحثين عن حقيقة الديانة الى الاقتباس منها ، او الى نقدها ، وبيان نقاط الضعف فيها ، للوصول الى ما هو اتم واكمل . ان العلم اليقيني لا يخلق كاملاً كما خلقت (فينوس) ، بل يتكامل شيئاً فشيئاً ، ويتبع في نشوئه مراحل كثيرة منها ما هو تقدم وارتقاء ، ومنها ما هو تأخر والتواء ، ان الأنهار الكبيرة لا تتكون الا من اجتماع الجداول الصغيرة . وحسب مؤلف هذا الكتاب ان يكون احد هذه الجداول .

جميل صليبا